المحاضرة التاسعة: الملاحظة الميدانية

الأهداف التدريسية :

- تمكين الطالب من التعرف على مختلف الاجراءات المنهجية الخاصة بأداة الملاحظة الميدانية.
- التمييز بين مختلف أنواع الملاحظة الميدانية و استخداماتها .

المحتويات :

1- تعريف الملاحظة الميدانية
2- شروط إجراء الملاحظة الميدانية
3- أنواع الملاحظة الميدانية
4- الملاحظة بالمشاركة و الملاحظة بدون المشاركة: عناصر الاختلاف
5- اجراءات الملاحظة الميدانية
6- الملاحظة الميدانية : المزايا و العيوب
7- أسئلة للمناقشة

تعتبر الملاحظة الميدانية Field Observation أداة محورية في البحوث الكيفية لارتباطها بواحدة من أهم معالمه و هو " الميدان " حيث تمثل هذه الأداة "تقنية مباشرة للتقصي ، تستعمل في مشاهدة مجموعة ما بصفة مباشرة و ذلك بهدف أخذ معلومات كيفية من أجل فهم المواقف و السلوكيات"(آنجرس،2006، ص 184)

1- تعريف الملاحظة الميدانية Field Observation :

تعرف الملاحظة الميدانية باعتبارها " المشاهدة و المراقبة الدقيقة لسلوك أو ظاهرة معينة ... بغية الحصول على معلومات دقيقة "(قنديلجي و السامرائي ،2009،ص 347)

2- شروط إجراء الملاحظة الميدانية :

تصبح الملاحظة الميدانية أداة عملية لجمع البيانات و المعلومات من موقع الدراسة حين تستوفي جملة من الشروط التي نبرز أهمها فيما يلي :

. المبرر العلمي : يجب أن يكون لتوظيف الملاحظة الميدانية كأداة لجمع البيانات في الدراسة ما يبرره علميا و منهجيا من حيث ملاءمتها لطبيعة الظاهرة أو المجتمع المدروس.

. التنظيم : حيث يجب أن يلتزم الباحث بعدد من الإجراءات المنهجية التي يعمل من خلالها على تحيق الهدف العلمي المرجو من ممارسة الملاحظة.

. التوثيق : حيث يجب أن يعمل الباحث على تسجيل المعلومات تسجيلا دقيقا.

. الموثوقية : مراعاة شروط تحقيق سمة الثقة في نتائج الملاحظة.

3- أنواع الملاحظة الميدانية :

يصنف R Wimmer & J Dominick الملاحظة الميدانية Field Observation إلى أنواع اعتمادا على بعدين اثنين يتعلق أولهما بدرجة مشاركة الباحث في السلوك موضع الدراسة و يتعلق

الثاني بدرجة الافصاح عن إجراء الملاحظة (R Wimmer & J Dominick p 124) على النحو الذي يوضحه التمثيل البياني رقم (1)

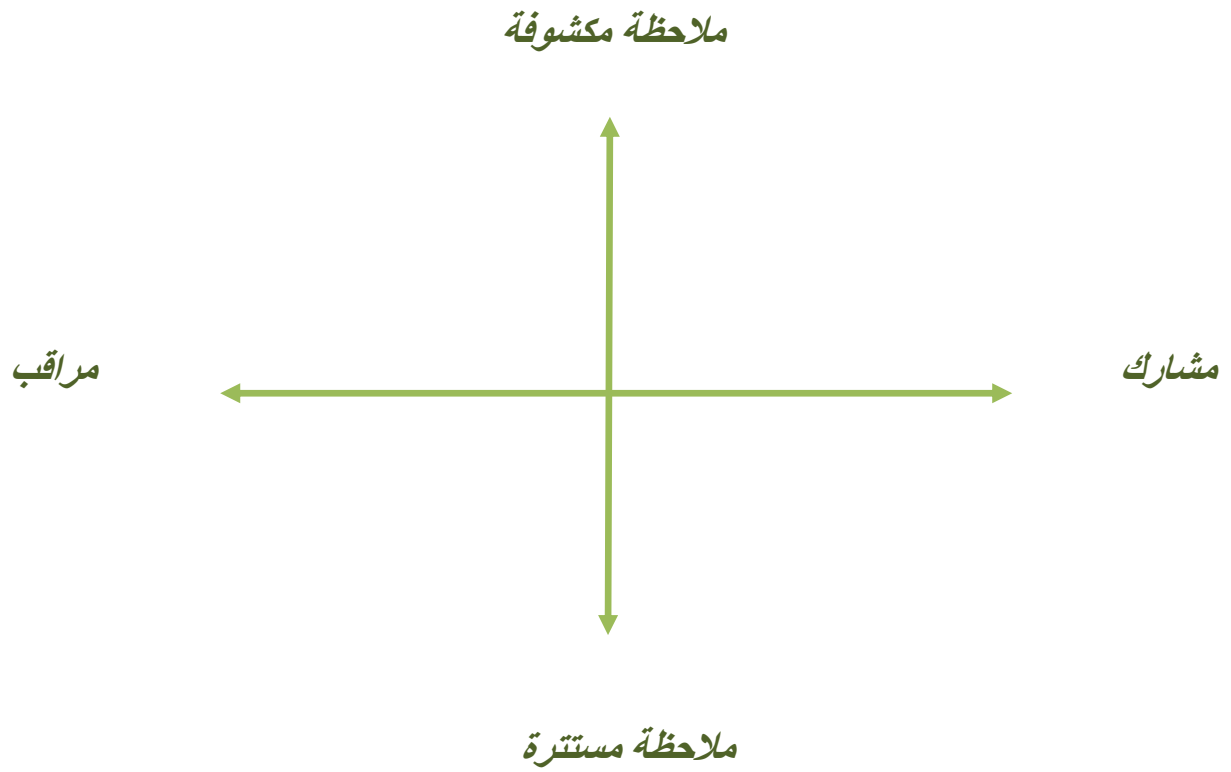

الشكل رقم (1) يوضح: أبعاد الملاحظة الميدانية (R Wimmer & J Dominick p 124)

و هو ما ينتج صنفين رئيسيين من الملاحظة الميدانية :

- ***الملاحظة بالمشاركة :*** و هو نوع من الملاحظة الميدانية التي " يشارك فيها الملاحظ في حياة الأشخاص الموجودين تحت الملاحظة "(آنجرس ، ص185) حيث يندمج الباحث من خلالها في مختلف مجالات حياة المبحوثين مع مراعاة عدم التأثير في واقع الظاهرة محل الدراسة ، و تنقسم الملاحظة بالمشاركة إلى نوعين رئيسيين هما :

. الملاحظة بالمشاركة التامة : و هي نوع من الملاحظة بالمشاركة التي يندمج الباحث من خلالها في الزوضعية قيد الملاحظة مع عدم التعريف بنفسه كباحث إذ " يحجب دور الملاحظ بالكامل و لا تكشف أهداف البحث لمن هم تحت الملاحظة ، بحيث يتفاعل الباحث في المشاركة التامة مع

الأفراد تحت الملاحظة بشكل طبيعي قدر الامكان في جميع قضايا الحياة التي تعنيهم "(شافا فرانكفورت ناشيماز & دافيد ناشيماز ت ليلى الطويل ص 280)

. <u>الملاحظة بالمشاركة المكشوفة</u> : و هي نوع من الملاحظة بالمشاركة التي يصبح الباحثون ،الذين يعرفون بأنفسهم كباحثين و بأهداف دراساتهم من البداية، في إطارها أعضاء مشاركين في أنشطة مجموع مفردات العينة محل الملاحظة إذ " يختلف دور المشارك كملاحظ عن دور المشارك التام من ناحية الافصاح عن أهداف البحث ، حيث يلتزم المشارك كملاحظ بالإعلان عن غرض الدراسة للمجموعة"(شافا فرانكفورت ناشيماز & دافيد ناشيماز ت ليلى الطويل ص 282)

- ***<u>الملاحظة بدون المشاركة :</u>*** **و هي نوع من الملاحظة الميدانية التي" لا يشارك فيها الملاحظ في حياة الأشخاص الموجودين تحت الملاحظة "(آنجرس ، ص185) حيث يعمل الملاحظ كمراقب دون المشاركة في أنشطة المجموعة محل الملاحظة ، بهدف تحصيل فهم دقيق للواقع المُلاحظ في إطاره الطبيعي. و يمكن التمييز بين نوعين من الملاحظة بدون مشاركة هما:**

. <u>*الملاحظة بدون المشاركة المستترة:*</u> و هي نوع من الملاحظة بدون المشاركة التي يعمل الباحث في إطارها على مراقبة المبحوثين دون أن يدركوا أنهم محل ملاحظة.

. <u>*الملاحظة بدون المشاركة المكشوفة :*</u>و هي نوع من الملاحظة بدون المشاركة التي يدرك المبحوثون فيها أنهم محل ملاحظة ، بحيث يلتزم الباحث بالتعريف بنفسه كباحث و الكشف عن أهداف دراسته منذ البداية .

4- <u>*الملاحظة بالمشاركة و الملاحظة بدون المشاركة:*</u> عناصر الاختلاف :

تعتبر مكانة الباحث ضمن الوضع محل الملاحظة و طبيعة دوره أهم محدد اختلاف و تمييز بين بين الملاحظة بالمشاركة و الملاحظة بدون المشاركة ، إذ يشارك الباحث في النوع الأول أنشطة المبحوثين و يمتنع عن ذلك مكتفيا بالمراقبة فقط في النوع الثاني. و إضافة إلى ذلك يمثل الهدف من الملاحظة عنصر تمييز مهم بين النوعين ، ففي حين يقتصر الهدف الرئيسي من الملاحظة بون مشاركة على تقديم صورة دقيقة و مفصلة عن واقع الظاهرة محل الملاحظة فإن الهدف من الملاحظة بالمشاركة يتجاوز ذلك إلى التوصل الى المعاني التي يضفيها المبحوثون على واقع الظاهرة محل الملاحظة و التعرف على كيفية ادراكهم لها من خلال التركيز على ملاحظة كيفية معايشتهم لواقع الأحداث من حولهم و السعي الى تحديد المعاني التي تتشكل لديهم ضمن السياقات الاجتماعية

لانتمائهم و كذا بعض الاعتبارات الأخرى ذات الطابع الفهمي التي تعين الباحث في عمليات التحليل و التأويل التي تعتبر مطلبا رئيسيا في البحوث الكيفية ، و لذلك فإن الملاحظة بالمشاركة " لا تكتفي فقط بالحقل المرئي ، بل إنها تستنجد كذلك بوسائل أخرة مكملة للملاحظة ، مثل مقابلة بعض المبحوثين و تحليل المادة المكتوبة المتوفرة . يكمن الهدف اذن في الوصول إلى الفهم المعمق للوضع و معانيه حتى يكون في استطاعة التحليل الموالي إدراك التجربة المعيشة للأعضاء بهدف فهم الوسط الذي يعيشون فيه بكل شموليته "(آنجرس ، ص 186)

5- اجراءات الملاحظة الميدانية:

يعتمد الباحث على أداة الملاحظة الميدانية في جمع البيانات مباشرة من ميدان الدراسة على مراحل وفقا للإجراءات التالية :

- ***اختيار موقع الملاحظة الميدانية:*** تحدد إشكالية البحث المجالات الزمانية و المكانية للدراسة ، لينتقل الباحث إلى التفكير في "بيئة أو موقع حيث تحدث الظاهرة أو السلوك محل الدراسة بتواتر كاف ليجعل من اخضاعه للملاحظة أمرا متاحا " (R Wimmer & J Dominick p 229) حيث يمكن للباحث ان يختار موقع الملاحظة اعتمادا على مصادر مختلفة أهمها الدراسة الاستكشافية ، خبرته الشخصية ، بحوث و دراسات سابقة ، صحف ، مجلات ...الخ. و ينصح في هذا الإطار أن يستكشف الباحث موقعين أو أكثر مبدئيا ، ليختار من بينها أكثرها استقرارا بما يكفي لممارسة الملاحظة لفترة كافية (Anderson , 1987) كما يقترح الباحثون ممارسة إجراءات أولية مماثلة في إطار ما يسمى بـ "تغطية موقع الحدث" للتأكد من أن الموقع الذي تم اختياره يوفر امكانيات جمع المعلومات اللازمة و المفيدة (Lindlof , 1991)
- ***تحصيل منفذ للدخول*** : بعد أن يختار الباحث موقع البحث ينتقل إلى التفكير في طريقة لولوج الموقع محل الملاحظة ، و هو ما يتطلب منه بذل الجهد اللازم لتجاوز الصعوبات التي قد تعترض سبيل تحصيله لمنفذ إلى الموقع، و يربط الباحثون ما يُمكن أن يواجهه الباحث من صعوبات في هذه المرحلة بعاملين اثنين هما : . درجة عمومية الموقع و مقدار انفتاحه للعموم .

. استعداد الأفراد محل الملاحظة (المشاركين) لأن تتم ملاحظتهم (R Wimmer & J Dominick ,2004)

و في هذا الإطار يُنصح بعدم مباشرة الملاحظة قبل إرساء نوع من الألفة بين الباحث و مجموع الأفراد المعنيين بالملاحظة ، حيث يقترح الباحثون عددا من التقنيات التي يمكن أن تساعد الباحث في هذا و هي : . بناء اهتمامات مشتركة مع الأفراد محل الملاحظة (المشاركين) . أخذ الوقت الكافي لإقامة علاقات مع المشاركين . الاهتمام بمتابعة النشاطات و الأحداث العامة في المجموعة و المشاركة فيها إذا كان ذلك ملائما. (Bogdan &Taylor ,1998)

- ***التعيين (اختيار العينة):*** تتحكم البيانات المراد جمعها في عملية اختيار مفردات العينة، إذ يتعين على الباحث الإجابة على عدد من الأسئلة انطلاقا من تصوره لطبيعة البيانات التي يهدف إلى الحصول عليها (مثل : ما هو عدد الأفراد اللذين يجب ملاحظتهم؟ ما هي طبيعة السلوكيلا التي يجب ملاحظتها؟ ما هي المرحلة الزمنية من السلوك التي يجب التركيز عليها؟ ....الخ) و تستخدم "معظم دراسات الملاحظة الميدانية التعيين القصدي Purposive sampling حيث يعمل الباحث ، بناء على معرفته لمفردات العينة موضع الدراسة ،على اختيار عينة تتوافر في مفرداتها الخصائص أو الأنماط السلوكية أو الأحداث ذات العلاقة بالبحث " (R Wimmer & J Dominick p 232)
- ***جمع البيانات :*** تعتبر مرحلة جمع البيانات مرحلة متقدمة في مسار ممارسة الملاحظة الميدانية، حيث يستطيع الباحث في هذه المرحلة ،و اعتمادا على ما تم تحضيره في المراحل السابقة، يستطيع الإجابة على السؤالين التاليين لبدأ عملية جمع البيانات :

. ما هي المدة اللازمة التي يجب أن تستغرقها الملاحطة الميدانية؟

. ما هي الأدوات التي يجب استخدامها في تسجيل المعلومات التي يتم تحصيلها؟

. ما هي الكيفية التي يفضل انتهاجها لتسجيل الملاحظات؟

و تمثل " الملاحظات المسجلة في الميدان الحصيلة الأساسية للبيانات في أي دراسة تعتمد على الملاحظة كأداة لجمع البيانات، و فيها لا يقوم الملاحظ بتسجيل ماذا حدث و ماذا قيل فقط ، ول إنه يسجل انطباعاته و تفسيراته لما تمت ملاحظته على أن يتم ذلك من خلال عزل الآراء الشخصية

عن الوصف ، و ذلك بوضع الآراء الشخصية بين قوسين" (R Wimmer & J Dominick p 234)

و يتطلب تسجيل الملاحظات الميدانية انتباها كبيرا من الباحث و يفرض عليه تحديات كبيرة أبرزها: . الانسحاب لتسجيل الملاحظات دون إثارة انتباه المشاركين "ذلك أن أفضل الأوقات لتسجيل الملاحظات يكون أثناء تواجد الملاحظ في الموقع أثناء حدوث الموقف أو السلوك ، و هو ما يهم في تقليل نسب التشويه أ, التحريف في البيانات"(المزاهرة ، 2011، ص 241)

. الاعتماد على الذاكرة ، حيث ينصح بأن يسجل الباحث ملاحظات بذاكرته ثم يدونها في أول فرصة متاحة (R Wimmer & J Dominick p 234)و يُؤخذ على هذه الطريقة أن الذاكرة قد لا تسعف صاحبها في تذكر كل تفاصيل الموقف أو السلوك.

. تحديد الوسائل الأنسب لتسجيل الملاحظات ، حيث أصبح القلم و دفتر الملاحظات من الوسائل التقليدية مقارنة بالكاميرا مثلا ، غير أن اختيار الأفضل منها مرتبط بنوع الملاحظة المعتمدة في الدراسة من جهة و كيفية تجاوب المشاركين (الأفراد موضع الملاحظة) من جهة ثانية.

و لأن جمع البيانات يعتمد على الملاحظة المباشرة للموقف أو السلوك يقترح R Wimmer & J Dominick ثلاث تقنيات تساعد الباحث على تحصيل المعلومات المستهدفة من موقع الملاحظة و هي :

. الاحتفاظ بمذكرات: إضافة إلى تسجيل الملاحظات الميدانية (بالكاميرا أو على دفتر الملاحظات) يمكن للباحث أن يحتفظ بأفكار مختلفة في مذكرات بحثية بشكل روتيني" و تتألف هذه المذكرات من مشاعر شخصية و عواطف و انطباعات عرضية و أفكار خاصة أخرى عن العملية البحثية" (R Wimmer & J Dominick p 234) و يمكن أن تساعد هذه التقنية الباحث على استيعاب البيانات الأولية الواردة في الملاحظات الميدانية بشكل أفضل .

. التدابير غير الظاهرة : و تتمثل في جملة من الإجراءات المعتمدة في "البحث عن ظواهر تحدث طبيعيا و لها علاقة بموضوع البحث "(R Wimmer & J Dominick p 235) و تكمن أهمية هذه التقنية في قدرتها على تجاوز مشكلة الارتكاسية (حيث يمكن مثلا تسجيل مؤشر الراديو في السيارة لمعرفة محطة الراديو المفضلة ، ملاحظة حالة الكتاب ممزق وجود خربشات تدل على القراءة و الغبار على غلاف الكتاب يعني عدم فتحه للقراءة منذ مدة)

. تحليل الوثائق: و يقسم R Wimmer & J Dominick الوثائق باعتبارها مصدرا خصبا للبيانات بالنسبة للباحث النوعي إلى مجموعتين رئيسيتين هما :

. الوثائق العامة و تشمل تقارير الشرطة ، الصحف ، نصوص برامج التلفزيون ، أرشيف البيانات ، الرسائل على لوحات إعلان الأنترنيت ،المدونات، المواقع الإلكترونية ، نشرات الشركات ، شواهد القبور ،الكتابة على الجدران الملصقات ...الخ

. الوثائق الخاصة : و تشمل الرسائل الشخصية ، اليوميات و المذكرات ،سجلات الهاتف ، دفاتر المواعيد.

- ***تحليل البيانات*** : إن المقصود بتحليل البيانات و المعلومات المنبثقة عما تم القيام به من مشاهدات هو تحصيل المعنى لما تم معاينته في الميدان من مواقف و سلوكيات ، إذ يتمثل "الهدف الكلي لتحليل بيانات الملاحظات الميدانية في الوصول إلى فهم عام للظاهرة المدروسة" (R Wimmer & J Dominick p 237) ، و ذلك من خلال دراسة البيانات المتجمعة "و تحليلها تحليلا علميا دقيقا بهدف توضيح الروابط و العلاقات و الأسباب و الدوافع التي تشكل النشاطات و الفعاليات بين عناصر الظاهرة الواحدة و علاقتها مع الظواهر الأخرى" (المزاهرة ، 2011،ص 242)

نستخلص ،بناء على ما تقدم، أن عملية تحليل بيانات الملاحظات الميدانية يتم من خلال تنظيم جهد الباحث في اتجاهين اثنين هما تسجيل البيانات و توثيقها من جهة و تحليلها من جهة ثانية ، لذلك وجب على الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار ما يلي من إجراءات:

. تجهيز نظام لتعبئة البيانات الميدانية الخام بصيغة ترتيبية قابلة للاسترجاع المنتظم

. أن عملية تحليل البيانات تتم بشكل متزامن مع عملية تسجيل المشاهدات ، و هو ما يوفر للباحث خاصية المرونة التي تمكنه من تعديل أو تغيير اجراءات الملاحظة الميدانية خلال ممارستها.

- ***الخروج :*** يحضر الباحث لمرحلة الخروج بعد التأكد من أنه جمع البيانات المستهدفة ، و ترتبط هذه المرحلة بطبيعة الملاحظة و موقع الباحث ،بوصفه مشاركا، ضمن مجموعة الأفراد موضع الملاحظة ، لذلك تتوقف طريقة الخروج من موقع الملاحظة و درجة يسره على مهارة الباحث في التحضير لخطة ترك الموقع ، هذه الأخيرة التي يجب أن تصمم وفقا لما تقتضيه الالتزامات الأخلاقية تجاه المشاركين الذين يمكن أن يسبب الانسحاب المباشر لهم أضرارا نفسية أو عاطفية أو جسدية.

6- ***الملاحظة الميدانية : المزايا و العيوب :***

تعتبر الملاحظة الميدانية واحدة من أهم أدوات جمع البيانات في البحوث الكيفية لما تتصف به من خصائص و مزايا ، إضافة إلى أن الكثير من الاشكايات العلمية المطروحة لدراسة الظواهر الاتصالية اعتمادا هعلى البحث الكيفي لا يمكن الاستغناء فيها على أداة الملاحظة الميدانية . إلا أن هذه الأخيرة تعتبر، من جانب آخر، خيارا سيئا حيث يكشف استخدامها على عدد من العيوب و المساوئ.

<u>.مزايا الملاحظة الميدانية:</u>

- الملاحظة الميدانية مفيدة في الدراسات الاستكشافية و الاستطلاعية لقدرتها على تزويد الباحث بمعلومات أولية حول الظاهرة محل الدراسة و تمكينها له من تحديد متغيرات الدراسة و عزل المستقلة منها عن التابعة.

- تذلل الملاحظة الميدانية صعوبة عدم تمكن المبحوث من التعبير على سلوكه ، و عليه فهي مفيدة ، مثلا ، في رصد سلوكات الأطفال الذين يفتقرون الى المهارات الكتابية و القرائية الضرورية للإجابة على أسئلة استبيان حول سلوكهم في مشاهدة برامج الأطفال على التلفزيون .

- تعتبر الملاحظة الميدانية الأداة الوحيدة الملائمة لجمع المعلومات حول كثير من الظواهر الاتصالية المدروسة لأنها تتيح للباحث الادراك المباشر لواقعها و الفهم العميق لعناصرها .

- الملاحظة الميدانية أداة جمع بيانات كيفية بامتياز لأنها تمكن الباحث من مشاهدة كل وقائع الأحداث ، فتتيح له الوصول إلى مسعى تأويلي مثمر يكون قائما على واقعية لا يمكن انكارها (آنجرس ، 2004) دون الحاجة إلى سؤال المبحوثين عن طريقة معايشتهم لهذا الواقع و هذه الأحداث .

- **تساعد الملاحظة الميدانية الباحث على الاندماج ضمن مفردات العينة المدروسة ، لتزول تدريجيا الصورة التي يكونها هؤلاء المبحوثين حول الباحث باعتباره غريبا عن وسطهم إلى أن يصلو إلى اعتباره جزء منهم ، و هو ما يسهل للباحث القيام بنشاطاته البحثية المختلفة بحرية مما يساعده في بناء صورة دقيقة و مفصلة حول الظاهرة محل البحث .**
- **تمكن الملاحظة الميدانية الباحث من بلوغ الصورة الشاملة للواقع المُلاحظ، لتساعده بذلك على تجاوز تحليل السلوك الفردي للمبحوثين إلى تحليل عمليات التفاعل بين المبحوثين ضمن السياقات الثقافية و الاجتماعية التي تحتوي هذه العمليات ، و منه التمكن من الإلمام بالوضع الكامل للظاهرة المدروسة .**

- تتيح الملاحظة الميدانية للباحث جمع معلومات حول الظاهرة المدروسة في حالتها الطبيعية ، فهو قادر على تسجيل معلومات حول أنشطة المبحوث و سلوكياته دون الحاجة إلى سحبه من واقعه الطبيعي و توقيفه عن نشاطه من أجل الإجابة على أسئلة أو تعبئة استبيان.

عيوب الملاحظة الميدانية:

- قد تستغرق الملاحظة وقتا طويلا ، ذلك أن بعض الوقائع تتطلب بطبيعتها ممارسة الملاحظة لفترات زمنية ممتدة و بالتالي جهدا مضاعفا و تكلفة مرتفعة.
- صعوبة التحقق من ثبات الملاحظة الميدانية " و ترجع هذه الصعوبة بشكل جزئي إلى أن الطابع التمثيلي للملاحظات التي تسجل هي موضع تساؤل ، و ترجع بشكل جزئي آخر إلى أن مشكلات في التعيين"(R Wimmer & J Dominick p 124)
- تحيز نتائج الملاحظة الميدانية بفعل إمكانية تأثرها كأداة بالمنظور الانتقائي للباحث لاعتمادها بشكل أساسي على ادراكه للواقع الملاحظ و انطباعاته الذاتية و منه أحكامه حولها
- تعتبر الارتكاسية (تعديل السلوك نتيجة الشعور بالوجود تحت المراقبة) أبرز الانتقادات الموجهة للملاحظة الميدانية باعتبارها أداة لجمع البيانات" فمعرفة المبحوثين بأنهم موضع ملاحظة ، قد يؤدي إلى قيامهم بتغيير أو تعديل سلوكهم محاولين في ذلك خلق أوضاع نموذجية من خلال التصرف بمثالية مما يتعارض مع الشروط العملية و العلمية للملاحظة الميدانية السليمة و يفقدها الدقة و الموضوعية" (Anderson,J.A,1987 ,p211) .

لذلك ينصح الباحثون بالاعتماد على استراتيجيتين اثنتين لتجاوز المنظور الانتقائي و الارتكاسية في الدراسات التي تعتمد على الملاحظة الميدانية " احداهما هي استخدام عدة مراقبين للتأكد من صحة النتائج ، و الاستراتيجية الثانية هي التثليث ، أو دعم بيانات الملاحظة و هي بيانات يتم جمعها بوسائل أخرى " (R Wimmer & J Dominick p 228) (المقابلات).

- قد تثير الملاحظة الميدانية بعض الإشكالات الأخلاقية كإخضاع الأفراد للمراقبة دون علمهم ، أو تعارضها مع القيم و العادات و التقاليد أو القوانين و التشريعات في الوسط الملاحظ .